١

سوريَّة ومهد الجنس البشري

قال اتيان لامي (١ ما تعريبهُ: « انَّ في العالم بلادًا تتصافح فيهـا اقطار اوروبَّة وآسية وافريقية. وتعيش بالالفة على السواحل نفسهـا. هي بلاد برِّيَّة وبحريَّة معًا. هي سوقٌ جامعة لمرافق مئة مدينة ومرفأ تتبادل فيهِ القارات الثلاث محصولاتها المتنوّعة. هناك تتصلَّب وتتوارد الطرق التجاريَّة التي فتحها العالم القديم. هي اقدم موطن يعاين فيهِ الانسان آثار اقدامهِ. فيها نشأَت اخصُّ الديانات الشائعة. وخلاصة القول لستَ تجد حيثما نظرت بلدًا اصغر من هذا في مساحتهِ قد اختلطت فيهِ وتزاحمت امم اكثر وديانات اعظم وآثار اخطر »

نعم القول يسرُّنا ان ننقلهُ عن كاتب بليغ فنحلّي بـهِ مطلع هذه الدروس التي افردناها لسوريَّة وآثارها

ولا مراء انَّ سوريَّة قبل كلِّ بلادُ القدَم بلاد الزمن السابق للتاريخ. فليت شعري أَليس لها علاقة مع اوَّل منازل البشر؟ انَّ الانسان منذ الوفٍ من السنين قد طبع في ذهنهِ ذكر فردوس ارضي ظهر فيهِ جنسهُ فاين هي يا تُرى هذه جنَّة عدن؟ افي العراق؟ افي سهول ما بين النهرين؟ افي غوطة دمشق وبقعتها الفيحاء كما ارتأَى القديس اغناطيوس منشئ الرهبانيَّة اليسوعيَّة في كتاب رياضاتهِ الروحيَّة؟ هذه الآراء وغيرها قد كُتبت فيها التآليف الواسعة بل تجفَّ المحابر قبل ان يُستقصى فيها البحث او يُكشَف سرّها بالتمام امَّا كون الفردوس في تخوم سوريَّة فهذا احد الآراء الثمانين التي قال بها الكتبة (٢ يؤيّدهُ كون الفرات يجري في بعض جهات هذه البلاد

---

١) في مقدّمة كتابهِ المعنون « La France du Levant »

٢) راجع الصفحة ١٠ من كتاب للعلّامـة دلتش حيث أَتسع في اقوال العلماء عن مكان الفردوس والصفحة ٤٢ (F. Delitzsch: *Wo lag das Paradies?* 43)

في النصف الاوّل من القرن السابق نزل عند لحف لبنان شاعر كان اصاب الشهرة في قومهِ يُدعى لامرتين . فاعجبهُ طيب هواء البلاد فاتّخذ بيروت لهُ موطناً وكان يخرج منها الى انحاء الشام ليزورها ويدرس آثارها . ففي بعض مسيرهِ رقي أكمة الاشرفيّة فوق كنيسة مار متري فاجال نظرهُ مليًا في المشاهد التي كانت تحدق بهِ فاخذت بمجامع قلبهِ وكادت تسحر لبّهُ . فكان يرى البحر حول بيروت من جهاتها الثلاث كانهُ المنطقة المزركشة بالارجوان والذهب . وكان ينظر على شمالهِ لبنان الناطح بقرونهِ السحاب وبين هذا الجبل وموقف الشاعر كانت تنبسط السهول السندسيّة الغنيّة بمزارعها منها غابات الزيتون عند شويفات وغابة الصنوبر . وكان يجد في ارمال بيروت صورة ملطّفة لمفاوز بلاد الصحراء . نعم انّ في العالم محاسن اجمل وابدع ولكن أيوجد في العالم امكنةٌ عديدة جمع فيها الله كلّ هذه المناظر المتباينة والروى الفاتنة في دائرة ضيّقة كهذه ؟ ذلك ما شغل فكر الشاعر زمناً طويلًا فبقي غائصاً في تأمُّلاتهِ الى ان عاد الى نفسهِ فهتف : « حقيقةً انّ الله قد وضع في هذا المكان اكثر ممّا يمكنهُ الانسان ان يتصوّرهُ فاني كنتُ اتوق الى مرأى فردوس عدن فها هوذا بعينهِ (١) »

لا أُريد ان احكم في هذا القول اهو عين صواب او هو بالحري وصف تخيُّلي لشاعر متفنن وليست غايتي ان أنسب لهُ حلّ هذا المشكل العويص . ولكن يمكننا ان نعتبر هذا البحث من وجه آخر فنحصرهُ في حدود معلومة . ولا يخفى عليّ بانهُ يلذُّ القرّاء ان يستقروا اخبار الشعوب جيلًا بعد جيل ليعرفوا مهد الجنس البشري ويتبيّنوا موقع الفردوس الارضي . لكنّ هذا البحث يخرج عن حيّز الممكنات وانّما نستطيع ان نقتصر في البحث عمّا ورد في تاريخ السلالتين العظيمتين من السلالات البشريّة اللتين لعبتا في العالم اشرف الادوار نريد الامم الساميّة والهندواوربيّة فنقول :

انّ المذهب الشائع بين العلماء في موطن بني سام الاصلي انّهم ظهروا في شبه الجزيرة التي موقعها بين خليج العجم والبحر الهندي والبحر المتوسط اعني في مربّع عظيم تشغل سوريّة جهتهُ الغربيّة . لا نجهل انّ غيرهم من المستشرقين يجعلون اصل الساميّين في افريقية ويزعمون انهم تخطّوا منها الى آسية . فرأيهم هذا يستدعي بحثاً لا

---

(١) راجع رحلة لامرتين (Lamartine : *Voyage en Orient*, ed.Hachette, I, 434)

يسعنا الآن الخوض في غمرهِ . وما لا شبهة فيـهِ انّ مهد الساميين التاريخيّ حيث يظهرون في نور التاريخ فنتبع اعمالهم واخبارهم دون ريب ونميّز خواصّهم التي تفرزهم عن غيرهم من الامم في القرون التالية قد كان موقعهُ في المربّع الكبير الذي ذكرناهُ آنفاً . سواء كان هذا المقام محلّهم الاصليّ ام لا ومنـهُ انتشروا في بقيّة انحاء آسية المتقدّمة ثمّ الى كلّ انحاء المعمور . ومن اراد ان يتجاوز هذه الحدود التاريخيّة سار في مجاهل على غير هدى وتعرّض للضلال والعثرة . ولعلّ تقدّم العلوم يأتينا يوماً بوسائل جديدة لتلطيف هذه الظلمات الكثيفة (١

امّا السلالة الهندواوربيّة التي تهمّنا من وجوه متعدّدة فانّ رأي العلماء في اصلها كرأيهم في الساميين . فانّهم لا يتفقون في تعيين مهدهم الاوّل وان كانوا يجعلونـهُ في آسية ليس بعيدًا من البلاد التي سبق القول فيها بأنّ الساميين اخوة الآريّين سكنوها في طورهم التاريخيّ

ولبيـان ذلك نكتفي بما يأتي وهو انّ العلماء مهما تقدّموا في الدروس التاريخيّة المتعلّقة بنشأة الجنس البشري زاد ايضاً توجّه ابصارهم الى ذلك القسم من آسية المتقدّمة الذي سوريّة تُعدّ كمركز لهُ فيجعلون فيهِ مهد الانسانيّة . والحق يقال انك إن تصفّحت تاريخ الشعوب اربعـة آلاف سنة قبل المسيح وجدت البلاد الغربيّة متسكّعة في ظلمة الهمجيّة بينما نرى الجهات الواقعة في شرقيّ البحر المتوسّط مزدهرة بنور التمدّن اعني وادي النيل والاصقاع الاسيويّة المجاورة لهُ من سواحل الشام وضفاف الفرات ودجلة . فيكون منشأ التمدّن جنوبيّ غربي آسية ومنهُ انتشر جيلًا بعد جيل الى بقيّة البلاد حتى عمّ الامم المتنوّرة (٢ . وبعبارة اخرى يصحّ القول بانّ سوريّة كانت في مركز دائرة كبيرة من البلاد التي ألّفت العالم القديم حيث كانت نشأة التمدّن الاوّل في المسكونة وان عجزنا عن بيان وقوع الفردوس فيها فكفاها فخرًا انّها كانت مهد تاريخ البشر .

---

١) راجع ما ورد في هذا الموضوع في تآليف العلماء الآتي ذكرهم : مسپرو في تاريخ الشعوب الشرقيّة (Maspéro : *Hist. anc. des peuples de l'Orient*, I. 550) ثم مقالـة فنكلر في شعوب آسية المتقدمة (H. Winckler : *Die Völker Vorderasiens*) في مجموعة « Der alte Orient » ثمّ كتاب غريم (Grimme : *Mohammed*, 6)

٢) راجع جغرافيّة روكلو (Elisée Reclus : *Asie Antérieure*, 1, 2)

ومن ثمّ نقول ايضاً عن سوريَّة أنّهـا من الاقطار التي استوطنتها المستعمرات البشريَّة الاولى إن لم تكن اوَّل ارض وطئها الانسان بقدمهِ . وما لا ريب فيـهِ انَّ سوريَّة قد تفرَّدت مع بلاد بابل والقطر المصري بكونها حفظت اقدم ما وُجد من الآثار المنبئة بوجود الانسان الناطقة باعمالهِ الاولى . وهو لعمري مجدٌ اثيل احرزتهُ لها في ميدان لم يجارِها فيهِ الَّا القليل

٢

موقع سوريَّة الجغرافيّ

لسوريَّة فضلًا عن كونها من مواطن البشريَّة الاولى فضلٌ آخر وهو موقعها العجيب في وسط المعمور . فانَّها قائمـة في حدود الشرق كالحارس يصونها وهي مع ذلك قسم صالح من حوض البحر المتوسّط الذي يوصلهـا باقطار الغرب تراها منفصلةً عن آسية المتقدّمة بجبال طورس الشامخة وبصحاري جزيرة العرب يصلهـا بافريقية برزخ دقيق برزخ سويس واقعـةً على سواحل البحر المتوسط الذي كان يُعدّ الى اواسط القرن السادس عشر كبحر المسكونة كلها فأسرع سكّان الشام وسلكوا هذه الطريق اللاحبة ودخلوا ذلك الباب الواسع المفتوح في وجه نشاطهم وتقاطروا الى الجزائر النازحة والبلاد السحيقة الواقعة في الغرب فطبعوا فيها صورة تمدُّنهم وآثار حياتهم . فكأنهُ تبارك وتعالى لم يجعل سوريَّة على جوار البحر المتوسط الذي اضحى منذ ٣٠٠٠ سنة من اخصّ سُبُل التمدُّن الَّا ليجعل اهلها في مقدّمة روَّاد المدنيَّة ونَقَلة الأُلفة فقاموا بهذه المهمَّة احسن قيام مدَّة نيّف والف سنة

قد قلَّد الله كلّ شعب دعوةً يفيد بها الهيئة الاجتماعيَّة . امَّا خاصَّة الفينيقيين واهل سوريَّة فانّ دعوتهم انَّما كانت نشر التمدُّن . نعم انَّ التمدّن بلغ في بابل واشور مبلغًا اعظم منهُ في انحاء الشام كما انَّ عقول الاشوريين لم تكن أقلّ توقُّدًا من جيرانهم .